الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحفيظ بالوصوف –ميلة-
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المستوى: السنة الأولى ماستر

السداسي: السادس

المادة: تاريخ الأدب العربي –أعمال موجهة-

الأستاذ: سميرة بوجرة

النثر في العصر الأموي: الخطابة

خطبة زياد بن أبيه

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكبير لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول،

أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه؛ من تركككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل؟

ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ !قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونه حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب، حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا .

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم .

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة؛ فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في، واعلموا أن عندي أمثالها .

من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه، فإياي ودلج الليل؛ فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية؛

فإني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة؛ فمن غرق قوما غرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه، وقد كانت بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته .

إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا، ولم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته؛ فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه، ولا مجمرا لكم بعثا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم؛ فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم .

أسأل الله أن يعين كلا على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله، وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

المطلوب: ما هي خصائص الخطابة في العصر الأموي من خلال هذا النموذج؟

التحليل

1. التعريف بزياد بن أبيه: هو أحد دهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها. منشؤه: كان للحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب أمة تسمى سمية قرنها بعبد له يدعى عبيدًا، فولدت له زيادًا هذا في السنة الأولى من الهجرة، فنشأ غلاما فصيحا، شجاعا، داهيا، قارئًا، كاتبًا، فما إن افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر (رضي الله عنه) فأظهر من الحذق وحدة الذكاء وبعد الغور ما جعل أمير المؤمنين يقول عندما عزله عن عمله "إنه لم يعزل لعجز ولا خيانة وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله" غير أن ذلك لم يكن ليصده عن استكفائه بعض مهام أموره، فكان في جمعيها مرضي المقام محمود الأثر، حتى قال فيه عمر بن العاص "لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه".

ولما رأى أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه حصافة عقل زياد وحسن بلائه وفصاحة لسانه أسر إلى يعض قريش ومنهم علي كرم الله وجهه بأن زيادا ابنه، اشتملت عليه سمية منه وهو مشرك، ولكنه لم يستلحقه علانية أنفة منه.

ولما ولي أمير المؤمنين علي الخلافة اضطربت عليه فارس، فاستشار الناس فمين يكفيه أمرها، فأشار بعضهم بزياد، فسار إلى فارس يجمع كثير، فتمكن بخداعه ودهائه من إيقاع النفور والشقاق بين رؤساء المشاغبين، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكتت ثائرتهم، ولم يلق منهم حربا ولا كيدا. وبقي يتولى لعلي الأعمال حتى قتل علي فخلقه معاوية واهتم له كثيرا...

ولاه معاوية البصر وخرسان وسجستان ثم جمع له السِند والبحرين وعمان، ثم ضمّ إليه الكوفة، فأصبح بذلك واليا على العرقين وهو أول من جمع له بينهما، فسار في الناس سيرة لمّ بها الشعث، وأقام المعوج، وكبح الفتنة واشتط العقوبة، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، حتى أكد الملك لمعاوية، وحتى شمل خوفه جميع الناس، فأمن بعضهم بعضا. وكان زيادا يقول "لو ضاع حبل بيني وبين خرسان لعرفت آخذه". وكان مكتوبا في مجلسه عنوان سياسته، وهي: الشدّة في غير عنف، واللين في غير ضعف، المحسن يجازى بإحسانه، والمسيء يعاتب بإساءته.

أما فصاحته فيكفيك في وصفها ما رواه الجاحظ عن الشعبي قال: "ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زبادا، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما. توفي بالكوفة في رمضان 53 هـ ومن خطبه البليغة خطبته حين قدم إلى البصرة.

2. تسمية الخطبة ومناسبتها: سميت هذه الخطبة لزياد بن أبيه بالخطبة البتراء لخولها من الحمد والتسبيح الذي تعود سماعه في كل الخطب. وقال خطبته هذه عندما ولي البصرة، وتقول الروايات إن زيادا قدم البصرة (والفسق ظاهر فاشٍ فخطبهم خطبته البتراء، التي لم يحمد الله فيها لأنه لم يحمد الله تعالى فيها و لم يصل على النبي ص). وفي حديث كل أمر ذي بال يبدأ فيه بحمد الله فهو لأبتر لأي أقطع والبتر معناه القطع.

وفى تلك الخطبة البتراء الشهيرة عام 45 أعلن زياد الأحكام العرفية، أو قانون الطوارئ، ليسجل سبقا سيئا في تاريخ المسلمين. وسميت (الخطبة البتراء) لأنها خلت من تحميد الله سبحانه وتعالى، على غير العادة في الخطب. وقد جمعت تلك الخطبة بين الإنذار والوعظ، والتهديد والوعيد في أروع أسلوب. والسياسة التي جرى عليها زياد في البصرة هي السياسة التي أوضحها في خطبته التي يظهر فيها بجلاء تأثره بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب وسياسته الشدة في غير عنف، واللين في غير ضعف، كذلك من الأساليب التي لجأ إليها في سياسته، جعله زعماء القبائل وأشرافها يعاقبون كل من يخل بالأمن من عشائرهم . استطاع زياد بهذه السياسة أن يخمد كل الفتن التي أثارها الناس ومنها الفتنة التي أثارها الخوارج. ونتوقف بالتحليل مع هذه الخطبة التي تعد إحدى عيون الأدب العربي، وأشهر الخطب فيه.

3. موضوع الخطبة والهدف منها: في فترة الاضطراب السياسي عرفت البصرة التمرد السياسي إضافة اللي التمرد الأخلاقي، خصوصا مع ضعف الولاة عليها من قبل معاوية، ومنهم ابن عامر والحارث بن عبد الله الأزدي الذي ظل واليا أربعة أشهر، وبعد أن انضم

زياد إلي معاوية أصبح لمعاوية فارس وخراسان، وهما أهم أقاليم البصرة، وكان منوطا بزياد أن يتولى البصرة بكل الأقاليم التابعة لها. وحيث أن مدينة البصرة نفسها كانت عاصمة للانحلال والتمرد وقتها فكان لابد من إصلاحها وإخضاعها بالشدة والعنف، وحيث أن شخصية الوالي تعرف من خلال لقائه الأول بالناس، ومن خلال خطبته فيهم، فقد حرص زياد علي أن يقدم نفسه ويعلن سياسته في تلك الخطبة البتراء التي خلت من الحمد والتسبيح، وكل ذلك لخدمة الهدف الإعلامي للخطبة، وهي تبرير إعلانه الأحكام العرفية على البصرة وولايتها لإخضاعها للسلطة الأموية سياسيا، وتأكيد الأمن فيها اجتماعيا.

ـ **مقدمة الخطبة**: لم يفتتح زياد خطبته بالتسبيح والحمد وذلك ذكاء ودهاء منه، لأن ذلك يوحي باللين والتسامح والعفو والمغفرة ، وليس هذا هو الهدف الإعلامي من تلك الخطبة البتراء ، وزيادا استفاد هذه البلاغة من القرآن الكريم حيث نزلت سورة (براءة) بدون بسملة وافتتحت بالبراءة من المشركين المعتدين، وجعلت لهم أجلا مدته أربعة اشهر حتي يتوبوا عن اعتدائهم وعصيانهم، وربما وجد زيادا حال البصرة وسكانها أشبه بحال أولئك المشركين المعتدين، فنسج خطبته علي منوال افتتاحية سورة براءة (السورة رقم 9 في القرآن الكريم). وزياد هو أول من ابتدع هذه النوعية من الخطب، أي الخطب البتراء، ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (على أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان والتابعين لهم بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد : البتراء. تعتبر خطبة زياد البتراء بمثابة دستور السياسة، وهذا بطبيعة الحال بعد توليه وإدارة البصرة، ويبدو واضحا جدًا الغرض الذي ترمي إليه الخطبة هو تبيان وتوضيح طريقة منهجه في العمل أي الحكم، ولذا جاءت خطبته أشبه ما يكون ببيان دستوري. المتمعن في أسلوب خطبة زياد البتراء، أنه يسعى من خلال دهائه وحزمه ودرايته بأمور السياسة إلى تسلم زمام المبادرة والسيطرة على الموقف وإلزام أهل البصرة بالطاعة وذلك من خلال طريقته التأثيرية والإقناعية.

ـ**الطريقة التأثيرية :** تكمن في الترغيب والترهيب. *الترغيب : للأشخاص الذين أطاعوا أوامره ، و المنفذين للقوانين التي وضعها. *الترهيب : للأشخاص الخارجين على صراط الدين و الدولة.

ـ**الطريقة الاقناعية :** مزج فيها بين الدليل العقلي و الدليل الديني و لكن الذي يهم زياد الجانب العقلي، والشعارات الدينية مجرد وسيلة لبلوغها.

ـالعرض:

في البداية بادر بهجاء أهل البصرة والهجوم عليهم وقرن ذلك الهجوم بالوعظ الديني. وهذه النوعية من الوعظ المقترن بالتهديد والوعيد والقتل بسيف السلطان تناسب حال زياد. ويلاحظ أنه لم يستخدم في الوعظ آية قرآنية مع إشارته في معرض هجومه عليهم إلي هجرهم كتاب الله (كأن لم تسمعوا بآيات الله ولم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما اعد الله الخ) كما أنه لم يستشهد بأي حديث منسوب للنبي عليه الصلاة والسلام، إذ إنه في تلك الفترة لم تكن للأحاديث دولة رائجة في الرواية الشفهية، وقد بدأت روايتها الشفهية علي اتساع فيما بعد، ثم بدأت كتابتها بعد هذا الوقت بقرن من الزمان. كما أن مصطلح (السنة) بمفهومه الديني لم يكن بعد معروفا أو مستعملا .لذا لم يرد في خطبة

زياد. كل ما قاله هو الآيات القرآنية والكتاب الله ففي القرن الأول الهجري لم يحدث أبدا ـ أقول أبدا ـ في أي خطبة رسمية أن يقال (الكتاب والسّنة) بل الكتاب فقط. وحتى بعد عصر زياد بنصف قرن تقريبا خطب عمر بن عبد العزيز أول خطبة له بعد توليه الخلافة فذكر فيها الكتاب فقط ونفى وجود شيء معه، إذ لم يكن في ثقافة المسلمين وقتها شيء يسمى السنة. يروى ابن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة عمر بن عبد العزيز، أنه عندما تولى الخلافة بعد موت ابن عمه سليمان بن عبد الملك: (خرج إلى المسجد فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي انزل عليه كتاب، إلا أن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة. إلا إني لست بقاض ولكني منفذ. إلا أنني لست بمبتدع ولكني متبع إلا أنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله. إلا أنى لست بخيركم ولكني رجل منكم غير أن الله جعلني أثقلكم حملا). والمستفاد من هذا أن زيادا في وعظه استخدم أسلوبه الشخصي، وقرن الوعظ بتوضيح مثالب أهل البصرة من الصغار والسفهاء إلى الكبار والزعماء، حيث فشا فيهم الفسق والظلم في الليل والنهار. وكان ممكنا أن يستشهد زياد بالقرآن الكريم وفيه أروع ما قيل بالعربية الفصحى في الوعظ والترغيب والترهيب، إلا أن ذلك لن يعطي لزياد فرصته في إظهار فصاحته الشخصية، وهي إحدى مظاهر عبقريته، وبها يستطيع بهذا الأسلوب الدعائي أحكام سيطرته السياسية. وهذه المبادرة الحادة بالهجوم كانت مقدمة لما جاء في وسط الخطبة من إعلانه لسياسته أو أحكامه العرفية التي لم تكن معروفة قبل زياد.

لقد قامت سياسة معاوية علي أساس الحلم والمداراة، وهو القائل (لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قالوا كيف؟ قال: إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها). ولم تكن هذه السياسة لتجدي في البصرة وولاياتها في المشرق، وهي أحد أهم مراكز المعارضة السياسية للحكم الأموي الجديد، وبسبب انفتاح البصرة علي الخليج والعالم واتساع الولايات التابعة لها، وكونها مجتمعا متعدد الأعراق فإن تمردها السياسي اقترن بانفلات أخلاقي مع ضعف الولاة وكثرة توليهم وعزلهم. وهذه الحالة في رأي زياد لا يجدي معها تطبيق الأحكام الشرعية العادية، كما لا يجدي معها تطبيق سياسة معاوية في اللين والمداراة، وإنما تحتاج إلي نوعية من الأحكام العرفية لا تأخذ المجرم فقط، وإنما تستهدف المحيطين به. وهذه الأحكام العرفية التي بدأ بها زياد في تاريخ المسلمين كان لابد من أسلوب خاص في إعلانها، أي لا يصح أن يبدأ بها خطبته، وإنما يمهد لها بمقدمة هادرة يقرن فيها الهجوم والانتقاد الحاد بالوعظ الجاد، ثم بعدها يدخل في تفصيل أحكامه العرفية. وبعد أن وزع هجاءه ووعظه علي الجميع من السفهاء والحلماء والرعاع والزعماء داعيا للإصلاح ومنحازا للفضيلة، وبعد أن تيقن من إحساس المستمعين بالخجل والعار بدأ في الموضوع الأساسي للخطبة، وهو وسطها، أو الأحكام العرفية التي فرضها علي أهل البصرة. الوسط: وفي هذا الجزء يبدأ بقوله عن أماكن الفجور (حرام علي الطعام والشراب حتي أسويها بالأرض هدما وإحراقا) فهذا ينذر نذرا ويقسم قسما أنه لن يأكل ولن يشرب حتي يهدم ويحرق أماكن الفجور تلك .. وبالتالي يكون تنفيذ هذا القسم – وهو سهل ميسور – أصدق

دليل علي عزمه في تنفيذ سياسته، ثم بعدها بدأ يوضح سياسة وأحكامه العرفية:اهم معالم هذه السياسة:المظهر الأول:_ معاقبة المخطئ ومن حوله، فهو يعاقب الولي بالمولي والمقيم بالظاعن .. الخ .. وهذا يناقض القرآن وتشريع الإسلام القائل (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (فاطر18) (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(الإسراء 15) (أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (النجم 38) فليس في الإسلام أن يعاقب البريء بذنب المجرم، ولهذا فإن أحد الخوارج وهو أبو بلال مرداس بن أدية قال ليزيد معلقا علي خطبته (أنبأنا الله غير ما قلت، قال الله عز وجل: وإبراهيم الذي وفى، إلا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعي) فأوعدنا الله خير مما أوعدتنا يا زياد، فقال له زياد: أنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتي نخوض إليكم في الباطل خوضا).

إذن يعترف زياد ببطلان هذه الإجراءات التشريعية، إلا إنها ضرورة في نظره لمواجهة الانفلات الأمني الذي أسهب في الهجوم عليه. ويهمنا هنا أن زيادا قد أسس هذه القاعدة الظالمة، وهي معاقبة البريء بجرم المجرم. وعلى أي حال فقد كان لزياد شجاعة الاعتراف بأنه على الباطل هنا، ولكن المستبدين من بعده ـ وحتى الآن ـ ليسوا في مثل شجاعته وليسوا في مثل فصاحته .

ـ استحداث عقوبات جديدة لم تكن، والتعليل في قوله (وقد أحدثتم إحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة) أي فالجرائم الجديدة ابتدع لها زياد عقوبات جديدة من جنسها من الإغراق والحرق وشق القلب والدفن حيا وقطع لسان من يتكلم بدعوي الجاهلية.
- ويلاحظ أن زيادا يقرن إعلانه لهذه السياسة بضمان أكيد في أن يقوم بتنفيذها، وقد أوضح هذا الضمان في صورة علنية أشبه بالتحدي ، ليس فقط في انه اقسم بالله انه لن يأكل ولن يشرب إلا بعد إحراق أماكن الفساد، ولكن أيضا حين جعلهم شهودا علي انه سيفي بوعيده، واحل لهم العصيان أن لم ينفذ تصريحاته فيقول (أن كذبة المنبر بلقاء مشهورة، فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي).
- كما أن زياد يقرن تهديده ووعوده وتنفيذ أحكامه العرفية بشيء من الرفق والعدل، فلا دخل للعواطف الشخصية في تطبيق تلك الأحكام، فالكارهون لزياد من أهل البصرة والذين يعلم زياد كراهيتهم له لن يبدأهم بسوء حتي يبدأوا هم، أي أنه يعفو مقدما عما سلف ويبدأ معهم صفحة جديدة، فمن كان مسيئا فلينزع عن إساءته ومن كان محسنا فليزداد إحسانا.
- وقد يبدو في الخطبة التركيز علي الجرائم الجنائية دون السياسية التي تعني الخروج علي الدولة، ولو بمجرد الكلام دون الحركة والفعل. والواقع أن دهاء زياد جعله يركز في خطبته على الجرائم الخلقية ليتخذ منها حجة على أهل البصرة، ومسوغا لا علان تلك الأحكام العرفية الاستثنائية. إلا أنه بين سطور خطيئته جعل عقوبة القتل للمشتبه فيه سياسيا، وصاغ ذلك بأسلوب مطاط يفوق صناعة القوانين الاستثنائية في الدول النامية، إذ يقول (لا يظهر من أحد منكم خلاف ما علية عامتكم إلا ضربت عنقه) فالعوام مع الدولة، ومن يخالف رأي العوام يكون خارجيا، والخوارج هم أهم أعداء الدولة الأموية في ذلك الوقت.. وليس تعبيرا محددا توصيفه لتلك الجريمة التي تستوجب عنده ضرب العنق، مجرد قوله (لا يظهر من

أحد منكم خلاف ما علية عامتكم إلا ضربت عنقه). وكانت ثورات الخوارج وغيرهم – ولا تزال – تبدأ بدعوة ومقال ودعاية، ونري زياد لها بالمرصاد فيقول محذرا (وإياي ودعوي الجاهلية، فأني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه) ودعوي الجاهلية عبارة مطاطة يفسرها الحاكم حسب هواه. أي إنه جعل عقوبة قطع اللسان لمن يتكلم ضد السلطان. وللسلطان وحده تحديد نوعية الكلام الذي يكون مناط العقوبة، سواء كانت قطع اللسان أو ضرب العنق. أي إن عبقرية زياد جعلته يستخدم أسلوب الوعظ في تمرير أحكام استثنائية غاية في القسوة، تصادر مقدما حرية التعبير التي كفلها معاوية نفسه حين قال قولته الشهيرة (إنا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا). وقد فهم أبو بلال مرداس بن أدية خطورة تلك الخطبة وما تعلنه من سياسة فاعترض، فاعترف زياد بأنها الطريق الوحيد لمواجهة الخوارج، حتي ولو سار في طريق الباطل.

- ونجح زياد في تطبيق هذه السياسة في البصرة حتي أضاف له معاوية ولاية الكوفة، وكان للشيعة في الكوفة تأثير في ولاية المغيرة بن شعبة عليها ، وكانوا يهاجمون المغيرة اذا بدأ في الخطبة في شتم علي ابن أبي طالب، وكان قائد الشيعة في ذلك حجر بن عدي الكندي، وراح حجر بن عدي ضحية لسياسة زياد في الكوفة هو وأصحابه، فكانوا أول قتلي المعارضة القولية في تاريخ المسلمين، وهذا هو موضوعنا التالي.

في نهاية الخطبة: يقرن تقعيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ببعض النصائح وبعض الود الحذر مع التحذير والتهديد ، ولكن في أسلوب أكثر هدوء.

وتقعيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم هنا ينبع من عقيدة الحق الإلهي في الحكم إلى سبق بها زياد الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور. إذ كرر المنصور العباسيـ بعد قرن تقريبا ـ ما قاله زياد في هذه الخطبة من أن الحاكم يستمد سلطته ـ ليس من الناس ـ ولكن من رب الناس، وأنه صاحب الحق الإلهي في السلطة وفي الثروة ، معتبرا أن مشيئة الله هي التي أعطت الحكم للحاكم، وبهذا الحق الإلهي المقدس يمارس الحاكم سلطاته. يقول زياد في ذلك (نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود- أي ندافع – عنكم بفيء الله الذي خولنا) أي أن الله هو الذي أعطاه السلطان والأموال، ولذلك يطلب منهم الطاعة غير المشروطة (فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا) أي ليست الطاعة للحاكم مقيدة بطاعة الله، بل طبقا لما يريده ويحبه السلطان .ثم يجعل من حقهم علي الحاكم العدل طالما ينصحون للحاكم، فالعدل هنا مشروط بالمناصحة أي يكونوا أعوانا ناصحين للحاكم (ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم) فالسلطان هو الذى يملك الولاية و السلطة، وهو الذى يملك العدل ويملك الثروة أو الفيء. وفي سياق فصاحته يؤكد قاعدة سياسية خطيرة، وهي الطاعة المطلقة للحاكم في مقابل عدل مقيد بمدي نصحهم للحاكم، ويربط صلاح الحاكم بصلاح الرعية (ومتي تصلحوا يصلحوا) وهي حجة وجيهة لتأجيل الإصلاح حتى تنصلح الأمة. وفى النهاية يمنعهم من بغض الحاكم ويأمرهم بالدعاء له بالصلاح.

وفي إطار تقعيد هذه العلاقة لصالح الحاكم علي حساب المحكوم أعلن أنه لن يقصر عنهم في تحقيق ثلاث: أنه لن يجعل حجابا بينه وبين أي طالب لحاجة حتي ولو جاءه بالليل، ولن يمنع

عنهم حقوقهم المالية، ولن يمنع جيشا في أرض العدو من العودة للوطن. وفي النهاية يذكرهم ويحذرهم من عقوبته فيهم، فيقسم بالله انه له صرعي كثيرين فيهم فليحذر كل منهم أن يكون من صرعاه.

الفصاحة في لغة الخطبة : - بدؤها بدون بسملة أو حمد لله ويسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة علي النبي صلي الله عليه وسلم : الشوهاء) .2 ـ من حيث البلاغة في الأسلوب، فقد حفلت الخطبة (بالمحسنات اللفظية) من (الطباق) و(المقابلة) و(الجناس) و(الطباق) هو إيراد لفظين متناقضين في المعني في سياق واحد ، مثل قوله (ما فيه سفهاؤكم .. ويشتمل عليه حلماؤكم) (الصغير .. الكبير) (اختار الفانية علي الباقية)(دلج الليل وغارة النهار ") (قربتم القرابة وباعدتم الدين)(ما انتم بالحلماء، وقد اتبعتم السفهاء)(آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله)(لآخذن الولي بالمولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم) . والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة (للطباق)، ومنها (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)(الحديد 3)(وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَاتُ) (فاطر 19 -). وحين يقع التناقض بين اكثر من لفظ في جملتين متقابلتين يتحول (الطباق) إلي (مقابلة)، وذلك كقوله تعالي (فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا) (التوبة / 82) فالضحك القليل في الجملة الأولي يقابله البكاء الكثير في الجملة الثانية. ونظير ذلك قوله جل وعلا (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار 13 -) وتكررت و المقابلة في خطبة زياد ومنها قوله (ولم تقرؤوا كتاب الله ولم تسمعوا ما اعد الله حق الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته) فالثواب الكريم لأهل الطاعة ، يقابله العذاب الأليم لأهل المعصية، ومنها قوله (فرب مسوء بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سنسوؤه) فالمقابلة هنا بين المبتئس الذي سيصبح مسرورا والمسرور الذي سيصبح مبتئسا عندما يأتي الأمير. وأيضا (فلنا عليكم. ولكم علينا) (لين في غير ضعف. وشدة في غير عنف).
-ما الجناس فهو اشتراك الألفاظ المختلفة في المعني في بعض الحروف، أو كل الحروف. ويكون الجناس ناقصا كقوله تعالي (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) (التكوير:15، 16). ويكون الجناس كاملا تاما اذا اشترك اللفظان المختلفان في المعني في كل الحروف كقوله تعالي (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) (الروم 55). وتكرر الجناس في خطبة زياد مثل قوله (المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة) (لين في غير ضعف.. وشدة في غير عنف) (انج سعد فقد هلك سعيد) (من غرق قوما غرقناه) (ومن حرق قوما حرقناه. ومن نقب بيت. نقبت عن قلبه) (نهاة تمنع الغواة)
-وبالإضافة للمحسنات اللفظية هناك البلاغة المعنوية من الاستعارة والتشبيه والكناية. فيقول عن المرأة التي تتعرض للاختطاف والاغتصاب (الضعيفة المسلوبة) وهي كناية شديدة الوقع.
ويأتي التشبيه بقوله (أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا). فتشبيههم في غيهم وعماهم بالذي دخل عينيه شيء أعاقها على الأبصار. وهناك استعارة في قوله (طرفت عينه الدنيا) (وسدت

مسامعه الشهوات). يأتي في غاية الفصاحة قوله عن الفساق المستترين في المنعطفات المظلمة والطرقات المهجورة (ثم اطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب) والكنوس أو الكنس بمعني مستتر، ومنها قوله تعالي عن النجوم المستترة الجارية في الفضاء الكوني (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)، ويقول عن الحكام (كهفكم الذي اليه تأوون). من المبالغة في الاستعارة قوله وقد أجاد فيه (اني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّل من بغضي لم اكشف له قناعا).
- وتلك البلاغة المعنوية وتلك المحسنات اللفظية استخدمها زياد ليوقع التأثير العميق في المستمعين في عصر الفصاحة العربية، وليقنعهم بهذه الفصاحة اللفظية والمعنوية بصدقه فيما يقول عن إجراءاته المتشددة وعزمه علي تنفيذها. ويمكن مراجعة قراءة الخطبة ليتبين أن زياد أحسن توظيف تلك المحسنات اللفظية والبلاغية خصوصا في الجزء الأول من خطبته الذي حفل بالهجاء لأهل البصرة وبوعظهم في نفس الوقت. ثم أحسن أيضا في توظيف فصاحته في الجزء الثاني حين اخذ يهددهم في لغة شديد وفصيحة، ثم جاء الجزء الثالث أكثر هدوء فكان الأسلوب أقرب إلى الأسلوب التقريري وابتعد عن الأسلوب الأدبي والمجازي ليلائم الحال. إذا عن عبقرية زياد في خطبته من حيث الفصاحة، أو الشكل العام.